عن أحد جميع القديسين

أسرة التراث الأرثوذكسي

إن خدمة الروح القدس تنير البشرية وتجعلنا قادرين على بلوغ ما هيأ الله لنا أن نناله. القديسون هم الذين أظهروا ثمار الروح بوفرة. " وَأَمَّا ثَمَرُ الرُّوحِ فَهُوَ: مَحَبَّةٌ، فَرَحٌ، سَلاَمٌ، طُولُ أَنَاةٍ، لُطْفٌ، صَلاَحٌ، إِيمَانٌ، وَدَاعَةٌ، تَعَفُّفٌ. ضِدَّ أَمْثَالِ هذِهِ لَيْسَ نَامُوسٌ" (غلاطية٥:٢٢-٢٣).

نحن ندرك قداسة الذين جاهدوا ليعيشوا حياة مقدسة، أي ما هو أعلى وأبعد من الحياة المسيحية العادية، من خلال تسميتهم "قديسين". كل المسيحيين هم "قديسون" بمعنى ما، لأن الكلمة تشير أيضاً إلى الفرز. يهتف الكاهن في القداس "القدسات للقديسين"، مباشرة قبل تجزئة الحمَل[١]، وهذه العبارة تشمل جميع المسيحيين الحقيقيين (المستقيمي الرأي) الذين يجاهدون من أجل الخلاص، ويسكنهم الروح القدس. ولكن عندما نشير إلى "القديسين" في هذا العيد، فإننا نذكر أولئك الذين "جاهدوا الجهاد الحسن وأكملوا السعي وحفظوا الإيمان" (راجع ١ تيموثاوس ٤:٧) أي " تَعِبُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ جَمِيعِهِمْ"(١ كورنثوس ١٥:١٠).

إكرام القديسين

كل الذين يعترفون بالمسيح، من الأرثوذكسيين أو غيرهم، يطلبون بعضهم من بعضِ الصلاة من أجلهم. من واجب المسيحيين الصلاة لبعضهم. ولأن الأرثوذكسيين يعرفون أن الذين ماتوا ليسوا أمواتاً بمعنى أنهم غير محسوسين، وبما أن "الله هو إله أحياء لا إله أموات"، فإنهم بطبيعة الحال يلجؤون إلى القديسين للتشفع، ويثقون بصلواتهم أكثر من صلوات الإخوة المسيحيين الذين لم ينجزوا إقامتهم الأرضية بعد.

يقارب المسيحي الأرثوذكسي القديسين بتوقير كبير، لأن الله أظهرهم "أكثر من غالبين". نحن نقف في رهبة أمام مآثرهم، وندرك نعمة الله بوضوح في شهادتهم وجهادهم. هذا طبيعي حتى في العالم. فالناس يكرّمون الذين قاموا بأعمال عظيمة، كالقادة الشجعان أو رجال الدولة الحكماء. وبما أننا نشعر بالرهبة أمام القديسين، فإننا نكرمهم بطلب شفاعتهم، أكثر مما نكرّم رجلاً عظيماً في الجسد. في كل تواصل مع القديسين نرى نور المسيح ونفرح به ونكرمه.

شفاعة القديسين

نحن نعلم أن الصلاة للقديسين أو طلب شفاعتهم هو عملٌ مُرْضٍ لله، بحسب شهادة الكتاب المقدس وخبرة الكنيسة الغنية. لأننا على يقين من أن مثل هذه الصلوات مَرْضيَّة، ولأننا ندرك النعمة العظيمة التي منحها الله لقديسيه، فإننا نكون على ثقة كبيرة عندما نطلب شفاعتهم.

يذكر القديس نكتاريوس أسقف المدن الخمس: "الكنيسة، بطلبها شفاعة القديسين، تؤمن بأنهم، وهم الذين يتوسطون إلى الرب من أجل سلام العالم واستقرار كنائس المسيح المقدسة أثناء حياتهم، لا يتوقفون عن ذلك في كنيسة المسيح السماوية الظافرة، وهم يستمعون إلى توسلاتنا التي ندعوهم فيها، ويُصلّون إلى الرب،

ويصبحون حمَلةً لنعمة الرب ورحمته".

ومثله القديس يوحنا كرونشتادت: "يجب أن نقتني الاتحاد الروحي الأكثر حيوية مع السكان السماويين، مع جميع القديسين والرسل والأنبياء والشهداء والأساقفة الموقرين والصالحين، لأنهم جميعاً أعضاء في جسد واحد هو كنيسة المسيح التي ننتمي إليها نحن الخطأة أيضاً، ورأسنا الحي هو الرب يسوع المسيح نفسه. فلهذا ندعوهم في الصلاة، ونتحدث إليهم ونشكرهم ونمدحهم. ومن الضروري جداً أن يتّحد بهم جميع المسيحيين إذا كانوا يرغبون في إحراز تقدم مسيحي؛ لأن القديسين هم أصدقاؤنا ومرشدونا للخلاص، فهم يصلّون ويتشفعون من أجلنا".

غير الأرثوذكسيين والقديسون والشفاعة

هناك الكثير ممن يعلنون الإيمان بالمسيح ولكنهم لا يعرفون شيئاً عن شفاعة القديسين، بل إنهم يتجنبون هذه المعرفة الحميمة والعلاقة السماوية على أنهما تجديف. أسبابهم في ذلك متعددة، منها التحزّب والتحيّز وعدم التجذّر في التقليد المسيحي وسوء فهم الكتاب المقدس وانتهاكات روما تاريخياً، أما السبب الرئيسي فهو الفهم غير التامّ للقيامة ومقتضياتها.

القديسون ليسوا راقدين أو "أمواتاً". ربنا نفسه أعلن بوضوح أن "الله ليس إله أموات، بل إله أحياء" (متى ٢٢:٣٢). فإله إبراهيم وإسحق ويعقوب ظهر متجلياً على جبل وإلى جانبه اثنان من أحبائه وهما على قيد الحياة، موسى وإيليا. هذا يوضح أن "الأموات" ممتلئون بالمعرفة والنشاط حتّى أكثر من الأحياء. فالرسل بطرس ويعقوب ويوحنا لم يتمكنوا من مقاومة النور غير المخلوق الذي انبثق من المسيح، بينما موسى وإيليا كانا يستمتعان به. لذلك لدى القديسين المنتقلين رؤية ومعرفة أعظم، وشفاعتهم أكبر فيما هم خارج أجسادهم مما كان لهم وهم في الجسد. هذا فهم مهم ناتج عن المعرفة الأولية للكنيسة، لكن مَن هم خارجها يفتقدونه.

أسباب هذا النقص في الفهم تعود جزئياً إلى كونهم لا يفهمون أن القديسين أحياء واعون وناشطون، وهذا يؤدّي إلى إساءة تفسير احترام الأرثوذكسيين للقديسين. يعلّق الكثيرون على كلمة "صلاة"، معتقدين أن هذه الكلمة تنطبق فقط على الله، وأي استخدام آخر لها يجب أن يجعلهم يمزقون ثيابهم. وهذا بالطبع سوء فهم نتج عن قرون من الطائفية والتعصب. "الصلاة" هي مجرد "طلب". نطلب من القديسين التشفّع من أجلنا، وأي فحص لكتاباتنا ونصوصنا الليتورجية يظهر أننا نفهم أن العبادة لله وحده.

كان لإساءات روما تاريخياً تأثير ضار على فهم البروتستانت للصلاة للقديسين. بعد الانشقاق الكبير، غرقت روما في الفساد الأخلاقي واللاهوتي. من النتائج اختراع عقيدة "الأعمال الصالحة الإضافية" وبيع صكوك الغفران. هذه العقيدة الزائفة، ربما أكثر من أي إساءة أخرى صدرت عن روما، قد سممت فهم البروتستانت في ما يتعلق بالقديسين. بعبارات بسيطة للغاية، تنصّ هذه العقيدة الخاطئة على ما يلي: هناك حاجة إلى قدر معين من "الأعمال الصالحة" لدخول الملكوت. فلنعتبر جدلاً أنه ألف نقطة. يتجاوز القديسون هذا العدد بكثير، ما يؤمّن لهم نقاطاً إضافية ليوزعوها. أما الخطأة المساكين الذين لا يستطيعون تحقيق كل هذه الأعمال الصالحة فيدفعون للحصول على "الغفران"، مما يزيد مجموع نقاطهم. على الرغم من أن هذا التفسير قد يبدو

سخيفاً وساخراً، إلا أنه في أساس عقيدة روما حتى يومنا هذا. رد فعل البروتستانت الأوائل ضد هذا الانتهاك كان صحيحاً إلى حد ما. عدم فهمهم الصحيح لشفاعات القديسين تطور مع مرور الوقت ليصبح تنصُّلهم من هذه الإساءة اللاتينية صورةً كاريكاتورية للإساءة نفسها، وأصبح معظمهم الآن يرددون تعويذة "لا يحتاج المسيحي إلى وسيط" غير يسوع المسيح، متمسكين بآية واحدة من الكتاب المقدس، دون باقي الكتاب، " لأَنَّهُ يُوجَدُ إِلهٌ وَاحِدٌ وَوَسِيطٌ وَاحِدٌ بَيْنَ اللهِ وَالنَّاسِ: الإِنْسَانُ يَسُوعُ الْمَسِيحُ" (تيموثاوس ٥:٢)، مفسرينها على أنها تمنع الصلاة للقديسين.

من المفارقات أن الذين يرفضون أن يطلبوا من القديسين التشفع لهم على أسس عقائدية يطلبون من الأحياء، من عائلاتهم وأصدقائهم، أن يصلّوا من أجلهم. إن الصلاة من أجل الآخرين عمل صحيح جداً، إذ إن المؤمنين بطبيعة الحال يصلّون من أجل مَن يحبونهم. لكن، صلاة الأحياء ليست بقوة صلاة القديسين، كما يخبرنا الكتاب المقدس: "طَلِبَةُ الْبَارِّ تَقْتَدِرُ كَثِيرًا فِي فِعْلِهَا" (يعقوب ١٦:٥). لذلك، فإن الذين يقولون أنهم لا يريدون من هو في المرتبة الثانية من حيث الفضل فهم يصلّون "مباشرة إلى الله". في الواقع هم يكتفون بهذا الثاني، عندما يطلبون صلاة إخوتهم الذين لا يزالون يجاهدون ضد الأهواء في الجسد، فيما يرفضون طلب شفاعة مَن انتقل وهو أكثر بِرّاً من الأحياء.

معنى العيد في الكنيسة الأرثوذكسية

يشرح أستاذ الليتورجيا المميّز يوحنا فوندوليس أن دورة الأعياد المتنقّلة التي بدأت بأحد الفريسي والعشار تنتهي بأحد جميع القديسين. في التريودي المهيب والبندكستاري البهيج، قدمت لنا الكنيسة كل عمل التدبير الإلهي المتمحور حول عيد الفصح العظيم. لقد رأينا سقوط الإنسان واستعادة جنسنا بقيامة المسيح. رحّبنا بمجيء المعزي إلى العالم واحتفلنا بميلاد شعب الله الجديد وتنصيب الروح القدس وانسكابه على كل البشر.

يرتبط عيد جميع القديسين، الذي هو ختم ونهاية فترة الأعياد الكبيرة، بالعنصرة ارتباطاً وثيقاً. بعبارة أخرى، هو يأتي كدليل على عمل الكنيسة وقوة الروح القدس في العالم. لأنه يظهِر لنا ثمار ذلك البذار وجنى ما أُرسِل الرسل لحصاده. وكما يلاحظ نيكيفوروس الكسانثوبولي بشكل رائع في سنكسار اليوم: "إن آباءنا الإلهيين أمرونا أن نكمّل هذا العيد بعد انحدار الروح القدس، كأنهم يوضحون لنا بطريقة ما، وهي أن حضور الروح الكلي قدسه قد فعل بواسطة الرسل هذه الأفعال، مقدّساً ومحكّماً الذين هم من عجنتنا، ومقيماً إياهم لكي يملؤوا مرتبة تلك الطغمة الملائكية الساقطة، ومرسلاً إياهم لله بالمسيح، بعضهم بالشهادة والدم وبعضهم بالسيرة المفضّلة والتصرف، وصارت أشياء تفوق الطبيعة. لأنه أما الروح فانحدر بشكل النار، الذي له الميل إلى العلو طبعاً، وأما التراب وعجنتنا فصعدا إلى العلاء، اللذان لهما طبعاً الميل إلى أسفل. أما قبل هنيهة، فإن الجسد المأخوذ لكلمة الله والمتألّه قد ارتفع وجلس عن يمامن المجد الأبوي، وأما الآن فإنه يجذب جميع المؤثرين نظير الوعد (كما وعد)، كأن بهذا أظهر كلمة الله أفعال المصالحة، وما هي الغاية المقصودة من حضوره بالجسد إلينا وتدبيره. وذلك أنه قد يُقتاد إلى محبة الله والاتحاد به الذين كانوا قديماً مَقصين، (أي) الشعب غير المحافظ من الأمم من حيث قُدِّمَت لله الطبيعة البشرية، كبعض النواجم المعتَبَرين فيها (الترجمة

الدقيقة هي باكورتها)، بطريقة سامية. فإذاً لهذا المعنى نعيّد هكذا عيد جميع القديسين".

ويذكر الأستاذ فوندوليس أيضاً أسباباً أخرى لإقامة هذا العيد الجامع. فالعديد من القديسين معروفون ويكرَّمون بالاحتفالات والأعياد، ومع ذلك، هناك كثيرون غيرهم ممن سكن فيهم الروح القدس وتقدسوا ولكنهم مجهولون. لهذا تكرمهم الكنيسة اليوم كما تشير خدمة هذا العيد. ويشير الأستاذ نفسه إلى سبب ثالث وارد في السنكسار؛ وهو وجوب أن يجتمع جميع القديسين الذين يُكرّمون بشكل منفصل في وليمة مشتركة ليُظهروا أنهم جميعاً جاهدوا معاً من أجل مسيح واحد في ساحة الفضيلة المسيحية المشتركة، وكانوا خداماً لإله واحد ومنه استحقوا أكاليل النصر. فبهذا يكون العيد الجامع دافعاً مشتركاً للمؤمنين الذين يشاركونهم الإيمان بالمسيح نفسه وخدمة الإله نفسه وهم يجاهدون مثلهم على نفس المسار بحسب المسيح. فعليه، يعطيهم هذا العيد رجاءً في أن يكتسبوا مجد هؤلاء الذين انتصروا في الماضي وأن يكون هذا العيد غداً عيدهم، عندما تباركهم نعمة الله فيُدعون إلى احتفال الانتصار المبارك في الكنيسة السماوية. إن أبناء الكنيسة يعيشون على هذا الرجاء.

[١] الحَمَل هو الجزء الأوسط من قطعة قربان التقدمة، الذي يقتطعه الكاهن ويضعه في وسط الصينية. يعلِن الكاهن "القدسات للقديسين" وهو يحمل الحَمَل بأصابعه. من ثمّ يعيده إلى مكانه فيقول الشماس "جزّء يا سيد" أي قطّعه. فيقسّم الكاهن الحَمَل إلى أربعة أجزاء ويضعها على الصينية بشكل صليب. من ثم يتناول ويناول الشعب منها.

المراجع

[1] Ιωάννου Φουντούλη. “Κυριακή των Αγίων Πάντων: Παρακλητικός Κανών, Χαιρετισμοί, Ικετήριος Κανών”. Λογική Λατρεία. εκδ. Αποστολικής Διακονίας. Αθήνα 1984.

[٢] بندكستاريون. سنكسار أحد جميع القديسين. ص. ٢٥٠.

[3] π. Φιλοθέου Ζερβάκου. Όσιος Φιλόθεος της Πάρου, 29, Εκδ. Ορθόδοξος Κυψέλη, σελ. 21. Ομιλία στον Ι. Ναό των Αγίων Πάντων της Πάρου το 1965. https://alopsis.gr/για-την-κυριακή-των-αγίων-πάντων-γέρον/

[4] Questions About The Sunday of All Saints.
https://www.orthodox.net/questions/sunday_of_all_saints_1.html

[5] Σεβ. Μητροπολίτου Ναυπάκτου και Αγίου Βλασίου Ιεροθέου. Ιερά Παράδοση και παραδόσεις. Εκκλησιαστικη Παρεμβαση. Τεῦχος 154 - Μάϊος 2009.